بطلان خرافة

الغوث

كتبه

عبد الرحمن المهدي الخضيري

* الباطل أو البطلان

تعريفه لغة : البطلان بضم الباء وسكون الطاء المهملة ، هو سقوط الشيء لفساده ، يقال : ((بطل الشيء)) أي : فسد أو سقط حكمه فهو باطل ، وجمعه بواطل وأباطيل .

واصطلاحا : هو ما لا يكون مشروعا بأصله ولا بوصفه*

---

* معجم اصطلاحات أصول الفقه /ص 39
تأليف / عبدالمنان الراسخ
الطبعة الأولى _ دارين حزم سنة 2003 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد :

فقد أفتتح مؤخراً في بلدة الجديد مسجد سمي باسم مسجد: [[الغوث سيدي حامد الحضيري]] وقد اعترضت على هذه التسمية وأنكرتها جداً لمخالفة مضمونها صريح الآيات المحكمات البينات من كتاب الله تبارك وتعالى وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكتبت في هذا للأخ أمين الهيئة العامة للأوقاف بطرابلس رسالة، فجاء الرد بالموافقة والأمر بتغيير تلك التسمية، لكن تنفيذ هذا الأمر توقف لأسباب لم أعلمها حتى الآن. وأنا هنا سوف أزيد هذا الأمر وضوحاً وتبياناً مستدلاً بالآيات البينات المحكمات من كتاب الحق تبارك وتعالى وصحيح سنة رسوله -ﷺ- على بطلان خرافة الأغواث والأقطاب والأبدال. وقبل هذا أجد نفسي مضطراً للقول: " أنا عبد الرحمن المهدي الحضيري، عبد الله الفقير إلى رحمته، عرفني من عرفني ومن لم يعرفني فقد عرفته بنفسي، لا أكفر أحداً من أهل القبلة، ألتزم مذهب الإمام مالك -﵁- في الأصول والفروع، وأقدم كتابه " الموطأ " على ما سواه من كتب المذهب، وأحب باقي الأئمة وأجلهم وأقدرهم، ولا أعتقد في أحد منهم العصمة، وأقول بأقوالهم جميعاً ما وافقت الكتاب والسنة الصحيحة، ولا أبغض المخالفين من المتصوفة وأصحاب الطرق، وأعذرهم، وأرجو لنفسي ولهم النجاة، وأقول للمتعصبين منهم، الجامدين على ما توارثوه عن أشياخهم تعالوا إلى كلمة سواء نحتكم فيها إلى كتاب رب العالمين والسنة الصحيحة طاعة لله جل وعلا ونزولاً عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾- النساء 59 - فالرد إلى الله -ﷻ- وإلى سنة رسوله -ﷺ- هو خير

القرآن الكريم ويستغيث بالموتى من دون الله تبارك وتعالى، وكتاب الله تعالى ينطق بالحق المبين: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ✿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ✿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ – فاطر ، الآيات **13- 14- 15** ، بعد هذا الوابل الصيب من كلام رب العالمين ترى من نصدق ؟ ! أنصدق القائلين بغوثية المخلوقين، أم كلام رب العالمين وهو أصدق حديثاً وأصدق قيلاً، أم نترك كلام ربنا تبارك وتعالى وننبذه وراء ظهورنا ونتبع أقوال كل ناعق فيكون حالنا كحال بني إسرائيل ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ – سورة البقرة**101** – أم نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض كما قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ – البقرة **85** – . فكل ما عارض هذين الأصلين " الكتاب والسنة " باطل يضرب به عرض الحائط أو يلقى به في المزابل ، فالعقيدة الصحيحة التي ترضي الله تعالى لا تستمد من غير القرآن العظيم وسنة رسوله –ﷺ– ، يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الشورى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ✿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ – الشورى **9 ، 10** نعم إنه هو الولي والناصر والمغيث وهو الذي يملك الموت والحياة والنشور والغوث والقطب وغيرهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ✿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾– **الحج 73- 74** . " فاستمعوا له، أي : تدبروا هذا المثل الذي ضربه الحق تبارك وتعالى حق التدبر ، فإن الاستماع بلا تدبر لا يفيد شيئاً ، وقد يورد صاحبه موارد الضلال، كما بين النبي –ﷺ– "يخرج قوم يقرؤون القرآن بألسنتهم لا يعدوا تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمية " (2) وما بدأ

---

[2] – صحيح مسلم، كتاب الزكاة ، باب: الخوارج شر الخلق برقم 159 – ومعنى لا يعدو – أي: لا يجاوز .

الفساد يدب إلى عقائد الناس وقلوبهم إلا بعد أن انصرفوا عن تدبر كتاب ربهم ولم يجدوا من يبصرهم بمعاني محكم التنزيل ويصحح العقائد على ما أوجب الحق تبارك وتعالى وملأ هذا الفراغ شيوخ أشباه متعلمين صرفوا الناس عن ذلك وحزبوا لهم الأحزاب والأوراد فظلوا عليها عاكفين غافلين عن كلام رب العالمين وأذكار رسول الله -ﷺ- وشحنوا عقولهم وقلوبهم بالخرافات والحكايات والمنامات حتى ظن المساكين أن هذا هو الدين الذي أنزله الله -ﷻ- وبشر به وأنذر البشير النذير -ﷺ-، وصار كل من يحتج عليهم بالقرآن العظيم والسنة الصحيحة عدواً لهم ورموه بكل التهم ، وحذروا منه الناس " إياك وإياك فإن فلاناً هذا وهابي زنديق يتَقَوّل في المشايخ " .

بعدما تقدم نأتي للتعريف بالغوث أو القطب وخصائصه من كتب القوم المعتمدة عندهم فقد جاء في تعريف الغوث عند عبد الرزاق القشاني [المتوفى سنة 730هـ] : " الغوث هو القطب حين يلتجأ إليه ، ولا يسمى في غير الوقت غوثاً" (3) .

ثم يعرف القطب بأنه: " القطب هو الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم وهو على قلب إسرافيل عليه السلام " (4) وفي معجم مصطلحات الصوفية: " القطب عبارة عن رجل هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان ومكان ، ويسمى بالغوث أيضاً باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو خلق على قلب محمد -ﷺ-، ويسمى أيضاً بقطب العالم وقطب الأقطاب، والقطب الأكبر، وقطب الإرشاد، وقطب المدار " (5) والأقطاب سبعة وهم أهل التصرف في الكون وهم الذين يدبرون أمور الخلق فالتصرف لهم ويعملون بأمر الغوث وتحت قيادته، وكل واحد من هؤلاء السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون بأمره، ومكان اجتماع الأقطاب لتدبير أمور العالم يكون بغار حراء " فيجلس الغوث خارج الغار ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى وأربعة أقطاب عن يمينه وهم مالكية على مذهب مالك بن أنس وثلاثة أقطاب عن يساره واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة والوكيل أمامه ويسمى قاضي الديوان، وهو في هذا الوقت [أي وقت الاجتماع] مالكي أيضاً من بني خالد القاطنين بناحية البصرة، واسمه: " سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي ومع الوكيل يتكلم الغوث ولذلك سمي وكيلاً لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان " ويحضره

---

(3) – اصطلاحات القشاني: ص 74 ، طبعة أولى ، دار الحكمة سنة 1415 هـ – 1995 .

(4) – المصدر السابق : ص 80 ، 81.

(5) – معجم مصطلحات الصوفية – د. الحفني – ص 217 ، 218 .

النساء وعددهن قليل وصفوفهن ثلاثة وذلك في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار" "ويحضره بعض الكُمّل من الأموات ويكونون في الصفوف مع الأحياء .... الخ"(6) ثم يقول الدباغ مؤكداً على تصرف الأقطاب في جميع الموجودات علوية وسفلية: " إن أهل الديوان إذا اجتمعوا فيه اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد فهم -ﷺ- يتكلمون في قضاء الله تعالى في اليوم المستقبل والليلة التي تليه ، ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية وحتى الحجب السبعين وحتى في عالم الرُّقّاء، وهو ما فوق الحجب السبعين، فهم الذين يتصرفون فيه وفي أهله وفي خواطرهم وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصريف، وإذا كان هذا في عالم الرقاء الذي هو فوق الحجب السبعين التي فوق العرش فما ظنك بغيره من العوالم " (7) ويضيف الدباغ على هذا الافتراء، فيقول: " ولقد رأيت وليا بلغ مقاماً عظيماً وهو أنه يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة والوحوش والحشرات السمَاوَات ونجومها والأرضين وما فيها وكرة العالم بأسرها تستَمد منه ويسمع أصواتها وكلامها في لحظة واحدة ويمد كل واحد بما يحتاجه ويعطيه ما يصلحه من غير أن يشغله هذا عن هذا ، بل أعلى العالم وأسفله بمنزلة من هو في حيز واحد عنده ثم يرحم هذا الولي فينظر فيرى مدده من غيره وهو النبي -ﷺ- ويرى مدد النبي-ﷺ- من الحق سبحانه فيرى الكل منه تعالى " ويبلغ الهذيان به مبلغاً عظيماً فيقول عن نفسه :" إني أرى السموات السبع والأرضين السبع والعرش داخله في وسط ذاتي وكذا ما فوق العرش من السبعين حجاباً ، وفي كل حجاب سبعون ألف عالم وبين كل حجاب وحجاب سبعون ألف عام "(8)؛ وهذه الدعاوى الباطلة ادعاها غير الدباغ ادعاها كل من زعم لنفسه الغوثية أو القطبانية، وقد سجل الشعراني وغيره في مؤلفاتهم منها الكثير ولولا خشية الإطالة لذكرنا منها العجب العجيب، ونختم هذا المقام بنموذج آخر منه، وهو ما نسب إلى الشيخ عبد السلام الأسمر في وصيته الصغرى ضمن تنقيح روضة الأزهار، حيث يقول: " ولا يسمى العارف عارفاً عند أهل الطريقة حتى يعرف من هو على

---

[6] – الإبريز من كلام عبد العزيز الدباغ لأحمد بن مبارك – دار الفكر – المكتبة الشعبية / بدون تاريخ الطبع / ص 323، 327 .

[7] – نفس المصدر – ص 338 – والطريف أن أهل الديوان قد يقع بينهم الاختلاف إذا غاب الغوث عن الديوان فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضاً– انظر الإبريز – ص 336 .

[8] – الإبريز – ص 439 ، 440 .

الهدى ومن هو على الضلال بعلم لدنى من الله تعالى بل الذي عرف الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ولا في جميع الكون وهذا مقامي الآن والحمد لله على نعمائه....الخ " (9) .

ويقول من قصيدة منسوبة له منظومة على منوال تائية ابن الفارض يقول :

وعاينت ما تحت الأرض والسما ∴ وما فوق كل الفوق حقا في لمحة
وشاهدت ما في اللوح معنى وصورة ∴ وما هو منسوخ وما هو مثبت

– إلى أن يقول :

فأُعطي لي التصريف حيا وميتا ∴ وصرت إمام الوقت شيخ الطريقة (10)

وكلام الدباغ وأمثاله عن الأقطاب والأغواث والأوتاد كله باطل لا دليل عليه من محكم التنزيل ولا سنة صحيحة ، بل إن فيها ما ينسف هذا الهراء والهذيان من قواعده فيخر عليهم السقف من فوقهم ، يقول الحق تبارك وتعالى في سورة النمل: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ – النمل **65** – والمعنى: قل لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ، وإلا هنا تفيد الحصر، فالله –ﷻ– استأثر بعلم ومعرفة الغيب وحده، وفي سورة آل عمران **179** : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها: " من زعم أن محمداً –ﷺ– يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾(9) أخرجه مسلم " (11) ؛ وفي سورة الأنعام: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۞ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ

[9، 10] – تنقيح روضة الأزهار – ص 190 ، 139 ، 141 – نشر مكتبة النجاح – طرابلس – سنة 1966م – والشيخ عبد السلام الأسمر لم تصح نسبة الطريقة إليه كما بين عمدة المؤرخين الليبيين العلامة ابن غلبون رحمه الله في التذكار حين ناظر الشيخ محمد النعاس – انظر التذكار ص 37، 38،39 – الطبعة الثانية بتحقيق الشيخ طاهر الزاوي عليه رحمة الله – نشر مكتبة النور – طرابلس – ليبيا سنة 1967 م – وبناءً على هذا فالأرجح أن هذه الأقوال المنكرة لا تصح نسبتها للشيخ رحمه الله .

[11] – تفسير القرطبي – جـ 13 ، ص 226 ، وانظر تفسير ابن كثير ، جـ 5 ، ص250 .

يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ۞ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ – الآيات 59، 64،63،62،61،60، وقوله تعالى: ﴿ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله وهو قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ، أي قل يا محمد للكافرين الذين يستعجلونك بالعذاب: " لو أن في قدرتي وإمكاني العذاب الذي تتعجلونه ، بأن يكون أمره مفوضاً إلى من قبله تعالى لقضى الأمر بيني وبينكم " ، فمفاتح الغيب بيد الله تعالى وحده ومختص بها وحده تعالى ، وأن ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لي من عند الله تعالى حتى ألزمكم بتعجيله ولا معلوماً لدي لأخبركم بوقت نزوله حسبما تقتضيه مشيئته؛ " ثم لما بين الله تعالى تعلق علمه بالمغيبات تأثره بالمشاهدات على اختلاف أنواعها وتكثر أفرادها ، ويعلم ما في البر والبحر من الخلق والعجائب ثم بالغ في إحاطة علمه بالجزئيات الفائتة للحصر بقوله سبحانه: وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ...... الآية ، أي أنه مكتوب ومحفوظ في العلم الإلهي " " وفي فتح البيان : في هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من مدعي الكشف والإلهام ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم ، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق "من أتى كاهناً أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد –ﷺ–"وعن ابن مسعود وابن عباس –رضي الله عنهما– والضحاك وعطاء بأن مفاتح الغيب: هي الأرزاق والأقدار وعلم نزول العذاب وما غاب عنكم من الثواب والعقاب "[12] .

تأثيره في المشاهدات

[illegible]

"والله تعالى في هذه السورة أمر نبيه –ﷺ– أن يعلن للناس أنه لا يعلم الغيب وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ الأنعام 50 – ؛ ولذا لما رميت عائشة – رضي الله عنها–

---

[12] – محاسن التأويل [تفسير القاسمي] لجمال الدين القاسمي – جـ 6 – ص 556 ، 558 ، 559 – دار الفكر – بيروت – سنة 1978 هـ

بالإفك لم يعلم أهي بريئة أم لا حتى أخبره الله تعالى بقولـــه: ﴿ أُوْلَٰئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ وقد ذبح إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عجله للملائكة ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه وقالوا له: ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾- هود 70- ولمـا جاؤا لوطاً لم يعلم أيضاً أنهم ملائكة ولذا ﴿ .... سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعـاً وَقَـالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾- هود 77- ؛ يخاف عليهم من أن يفعل بهم قومـه فاحـشتهم المعروفة حتى قال: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾- هـود 88- ولم يعلم خبرهم حتى قالوا له: ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾- هود 81- ويعقوب ابيضت عيناه من الحزن على يوسف، وهو في مصر لا يدري خبره حتى أظهره الله ، وسليمان مع أن الله تعالى سخر له الجن والرياح ما كان يدري عن أهل مـأرب قـوم بلقيس حتى جاءه الهدهد وقال لـــه : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَـإٍ يَقِينٍ ﴾- النمل 22- وقال تعالى عن نـوح: ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّـهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾- هود 41- والملائكة عليهم الصلاة والسلام لما قال لهـم: ﴿ أَنبِئُـونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾- البقـرة 31-32 - ، فقد ظهر أن أعلم المخلوقات وهم الرسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى[13] ، فأين منهم الأقطاب والأغواث والأوتاد المزعـومين أهـم أقرب إلى الله تعالى وأكرم عنده من رسله وأنبيائه وملائكته، ما لكم كيف تحكمون ؟ ! ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة فاطر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ وفـي سـورة الحج:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ولا نجاوز الحق إن قلنا: " أن كفار قريش كانوا أحسن عقيدة وإيماناً من الـذين يهرفـون بالأقطـاب والأغواث والأوتاد زاعمين لهم التصرف في الكون والمخلوقات وربنا جل في عـلاه يشهد لنا بهذا؛ يقول أصدق القائلين في سورة المؤمنون: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَـا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ۞ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

---

[13] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / محمد الأمين الشنقيطي المالكي – جـ 1 – ص 359 / دار إحياء التراث العربي – 1996 م .

يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ✿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ويقول رب العالمين -ﷺ- بأوضح بيان لا يحتمل تأويلاً لأكرم خلقه عنده سيد ولد آدم [ويسميه جهلة المتصوفة :" سيد الوجود"] ⁽¹⁴⁾ : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾- هود 88- . وهكذا ترى آيات الكتاب العزيز تبطل خرافة الأغواث والأقطاب والأوتاد وتدمغ من يزعم لهم التصرف في الوجود والخلق : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ ، ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ✿ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾،﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ولما أثنى الحق تبارك وتعالى على أوليائه ووعدهم بالبشرى في الدنيا والآخرة في سورة يونس : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ✿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أعقب هذا بقوله : ﴿ أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ ليؤكد هنا أن أولياءه -ﷺ- لا يملكون من الأمر شيء، وعليه فلا ينبغي الغلو فيهم والتعلق بكراماتهم ، لأن العزة لله جميعاً، قال الإمام القرطبي – رحمه الله في التفسير– : " ولا يحزنك قولهم " تم الكلام، أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك ثم ابتدأ فقال: " إن العزة لله جميعاً " أي: القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده، فهو مانعك وناصرك ومعينك. " جميعاً " نصب على الحال ولا يعارض قوله في سورة المنافقون: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن كل عزة بالله هي كلها لله قال سبحانه في سورة الصافات: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ – " السميع لأقوالهم وأصواتهم العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم" ⁽¹⁵⁾ فعلى كل ذي لب ودين أن يحذر من الغلو في الصالحين وتعظيمهم، فإن

---

[14] – أنظر الإبريز 439 – ومواضع عدّة من جواهر المعاني لعلي حرزام – جـ 1 – ص 91 ، 92 – قال مؤلفه إنه كتبه من إملاء شيخه أحمد التجاني ذكر فيه من الافتراء والكذب على الله ورسوله الشيء الكثير ، ورد عليه الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ردوداً قوية فند فيها مزاعمه وأباطيله – انظر جـ 11– ص 427 – وما بعدها من التفسير المذكور .

[15] – تفسير القرطبي – جـ 8 – ص 539 .

هذا الغلو أصل الوثنية وسببها الأول فهو الذي أدى بقوم نوح عليه السلام إلى عبادة ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسراً ، كما قال الحق تبارك وتعالى في سورة نوح: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً ﴾ ففي صحيح البخاري رحمه الله عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: " صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب " إلى أن قال: " أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم عُبِدَت " [16]. فمما تقدم من الآيات فقد ظهر أن أعلم المخلوقات وهم الرسل والأنبياء والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى، فأين منهم الأقطاب والأغواث، أهؤلاء أكرم وأقرب عند الله من رسله وملائكته ؟ ! مالكم كيف تحكمون، ولهذه الآيات وغيرها حكم علماؤنا المالكية عليهم رحمة الله تعالى– كالقرطبي وابن العربي وابن عبد البر والقاضي عياض – بكفر من ادعى علم المغيبات ؛ قال الإمام أبو الوليد بن رشد – الجد – رحمه الله: " وادعاء مشاركة الله تعالى في عالم غيبه ولم يطلع عليه أنبياؤه ورسله بواسطة زجر أو تنجيم أو بخط في غبار أو غير ذلك أو بغير واسطة والتصديق بشيء منه كفر، وقد كذَّبَ الله –ﷻ– مدعي علم غيبه وأخبر أنه المستبد بعلم ما كان وما يكون ففي غير ما آية من كتابه، قال تعالى [في سورة الجن]: " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً " وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [سورة لقمان] فادعاء معرفة ما يستتر الناس به من أسرارهم وما ينطوون من أخبارهم وما يحدثه الله من غلاء الأسعار ورخصها ونزول المطر ووقوع القتل وحلول الفتن وارتفاعها وغير ذلك من المغيبات إبطال لدلائل النبوات وتكذيب للآيات المنزلات" [17]، وقال الشيخ خليل بن إسحاق المالكي – معدداً الأمور التي

---

[16] – صحيح البخاري – كتاب التفسير ، وانظر فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني – جـ 8 – ص535 – دار الريان / القاهرة – 1407-1986 م ، وانظر تفسير القاسمي – جـ 16 – ص 300

[17] – مسائل ابن رشد الجد – المجلد الأول – ص 206 ، 207 – منشورات دار الآفاق الجديدة – المغرب الطبعة الأولى 1992 . وانظر الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض المالكي – ص 215 – وما بعدها– الطبعة الأولى – مكتبة الصفاء.

يصير بها المسلم مرتداً :- " كإلقاء مصحف بقذر وشد زنار وسحر .....إلى أن يقول: " أو ادعى شركاً في نبوته عليه الصلاة والسلام أو محاربة نبي أو جوز اكتساب النبوة أو ادعى أنه يصعد للسماء أو يعانق الحور....الخ " [18] ؛ وإذا كان هذا حكم علمائنا المالكية في من يدعي علم المغيبات ومن يزعم الصعود للسماء ، فكيف بمن يزعم للأولياء والأقطاب والأغواث التصرف في الموجودات علوية وسفلية ، وهذا مضاهاة لأقوال الرافضة والباطنية الإسماعيلية [19] .

أما الاستغاثة بعباد الله من الصالحين فإنه من الضلال البين ، فكيف يشرك في الدعاء الخالق بالمخلوق ، لأن جمهور العقلاء والعلماء و العارفين أن الدعاء أهم مقامات العبودية والأدلة النقلية في ذلك كثيرة جداً ، والاستغاثة بالمخلوقين لا يصح إلا في عقول الجهلة والحمقى ، فالحق تبارك وتعالى يدحض هذا الزعم بأبلغ بيان وأفصح كلام ، فيقول-ﷻ- : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة **186**] أي استجيب لهم بنفسي من غير واسطة، وقوله: " إذا دعان" – إذا توجه لي وحدي بالدعاء بلا واسطة غوث أو قطب ، لأن الله -ﷻ- خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، فالله تبارك أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ويعلم السر وأخفى، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ فالرشد خلاف الضلال والغي ولعلهم يهتدون في أمر دينهم ودنياهم، ويؤخذ من هذا : أن من دعاني ولم يشرك في دعائه أحداً من خلقه فهو من الراشدين ، ومن فعل غير هذا فهو غارق في الضلال " بدلالة قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ ففي هذه الآية دليل فقهي ولغوي على أن العبادة هي الدعاء ، كما

---

[18] – مختصر خليل – ص 267 – باب في الرِّدة – نشرة كلية دار العلوم / القاهرة – بدون تاريخ – ولا يفهم من هذا أننا نحكم بكفر الشيخ عبد السلام الأسمر وحامد الحضيري – عليهما رحمة الله – فما ينسب للشيخ الأسمر محل شك كبير والشيخ حامد الحضيري لم يثبت أنه ادعى الغوثية والقطبية ، وما نسب إليه من أشعار ركيكة افتراء وكذب عليه . وكل ما نسب للشيخين سببه الغلو فيهما من جهة المتعصبين والجهلة.

[19] – انظر مقدمة ابن خلدون – ص 375 – طبعة دار القلم / بيروت .

بين النبي -ﷺ-(20). وقوله تعالى: ﴿ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فـ (من) في الآيةَ جاءت لتشمل العاقل وغير العاقل، كما يقرر علماء اللغة: " اسم موصول مشترك " كقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ فمن يستغيث باللات والعزى ومناة فهو ضال كمن يستغيث بالغوث والقطب فهم مشتركون في الضلال ، وذكروا في سبب نزول هذه الآية : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .... الآيَةَ ﴾ أن أعرابياً جاء للنبي -ﷺ-، فقال: " أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه " فأنزل الله تعالى هذه الآيَة (21) ، وروى أنه -ﷺ- كان في غزوة، وقد رفع أصحابه أصواتهم بالتهليل والتكبير والدعاء فقال لهم : " إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً" (22) – فالله تبارك و تعالى قريب يجيب الداع إذا دعاه، قريب من عبيده بعلمه المحيط بكل شيء، تعالى علواً كبيراً عن الشركاء والوسطاء، قال تعالى حاكيا قول نبيه صالح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ هود **61** – وقوله -ﷻ- عن نبيه محمد -ﷺ-: ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ سبأ **50** – وفي نفس السورة يؤكد الحق تبارك وتعالى بأوضح بيان لا يحتمل التأويل أن الذين يدعونهم من دونه تعالى لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض: لقوله -ﷻ-: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ سبأ **22** – ولا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، أي: من خير وشر ونفع وضر " وما لهم فيهما من شرك: أي شركه لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصريفاً " وما له منهم من ظهير، أي معين يعينه على تدبير خلقه، قال الزمخشري: " يريد أنهم بهذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية ؛ فكيف يصح أن يُدْعَوْا كما يُدْعَى تبارك وتعالى ويُرْجَوْا كما يُرْجَى " (23) وانظر إلى قوله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿ قُلْ مَن

---

[20] – ((الدعاء هو العبادة)) – رواه أصحاب السنن الأربعة والبخاري في الأدب المفرد من حديث النعمان بن بشير -ﷺ- .

[21] – قال الحافظ ابن حجر : أخرجه الطبراني وابن حاتم والدار قطني . وانظر تفسير الكشاف للزمخشري – جـ 1 – ص 228 – المكتب التجاري / بيروت .

[22] – أخرجه البخاري في الجهاد – باب : ما يكره من رفع الصوت في التكبير.

[23] – تفسير القاسمي : " محاسن التأويل " – جـ 14 – ص 19 .

بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ المؤمنون 88 – أي: هو يمنع من شاء ممن شاء، ولا يمنع أحد منه أحداً شاء أن يهلكه أو يعذبه، لأنه هو القادر وحده على كل شيء وهو القاهر فوق عباده [24]. وفي تفسير القاسمي رحمه الله: " أي يغيث من أراد، ممن قصده بسوء، ولا يجار عليه. أي: ولا أحد يمتنع ممن أراده بسوء فيدفع عنه عذابه وعقابه[25] " ونظير هذه الآية قوله تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: أن ما يفتحه الله تبارك و تعالى للناس من رحمته وإنعامه عليهم بجميع أنواع النعم لا يقدر أحد كائنا من كان أن يمسكه عنهم وما يمسكه عنهم لا يقدر أحد أن يرسله إليهم وهذا معلوم من الدين بالضرورة ، والرحمة المذكورة في الآية عامة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي ، كما قال تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[26] ؛ والأدلة في الكتاب العزيز كثيرة جداً تؤكد أن مقاليد السموات والأرض بيد الواحد الصمد جل وعلا رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ليس بينه وبين خلقه وسطاء ولا شركاء، كما خلقهم تعالى ونفخ فيهم من روحه وسواهم بلا كلفة ولا مؤنة ولا واسطة، لا كما يقول الجاهلون: " لولا الواسطة لذهب الموسوط " – قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي شديد وصعب ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾– المائدة **17**– وأن القول بخرافة الغوث والقطب ابتدعه متأخروا المتصوفة المتأثرون بعقائد الباطنية والرافضة كما ذكرنا من قبل وإذا رجعت إلى رسالة القشيري رحمه الله فإنك لن تجد فيها خرافة هذه المقامات المزعومة ، وها هو الشيخ أحمد الزروق – رحمه الله تعالى– يقول في كتابه النفيس " عدة المريد الصادق " بعد أن ذكر عدداً من طوائف الصوفية المبتدعة، قال: " وطائفة تدعي المراتب وتتجاسر عليها وتتقاسم الألقاب بينها ، كفلان قطب وفلان من الأبدال وفلان وتد رقى

---

[24] – أضواء البيان للشيخ المالكي محمد الأمين الشنقيطي – جـ3 – ص 571 .

[25] – تفسير القاسمي : جـ 1 – ص 98.

[26] – أضواء البيان للشنقيطي – جـ4 – ص 311.

وأعطى وغير ذلك، وهذه جسارة عظيمة لأنها من الكذب على الله والرجم بالغيب من غير دليل ولا برهان"[27] ؛ أما السنة النبوية المطهرة فلم يرد فيها حديث صحيح يعول عليه فيه أن الرسول -ﷺ- استغاث بالأنبياء أو الملائكة المقربون، بل كان في دعائه وأذكاره -ﷺ- يستغيث بالله تبارك وتعالى، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -ؓ- وفيه: " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " ودعاؤه -ﷺ-: " يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا بديع السموات والأرض برحمتك استغيث " ؛ وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في حديث الإستسقاء: " فرفع رسول الله -ﷺ- يديه ثم قال: " اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا " وفيهما عن سعد بن عبادة ، قال: حدثني البراء بن عازب -ؓ- قال: قال رسول الله -ﷺ-: " إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: " اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت فإن مِتَّ مِتَّ على الفطرة ، فاجعلهن آخر ما تقول " وفيهما من حديث أبي هريرة -ؓ-: " إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلةَ إزاره فلينفض بها فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن وليقل: " سبحانك اللهم ربِّ بك وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ بها عبادك الصالحين " وقوله -ﷺ-: " فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين" – أي الذين أعنتهم على أنفسهم ووفقتهم للقول والعمل الصالح. وقد علَّم النبي-ﷺ- ابن عباس -رضي الله عنهما- أن لا يسأل إلا الله ولا يستعين إلا بالله، تطبيقاً عمليا منه -ﷺ- لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ ﴾[28] فعنه -ؓ- قال: " كنت خلف النبي -ﷺ- يوماً، فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف " – قال الإمام الترمذي: حديث حسن صحيح ورواه الإمام

---

[27] – عُدّة المريد الصادق للشيخ أحمد زروق – تحقيق : د- الصادق الغرياني – ص 19 – ص 199 وما بعدها – مطابع الجماهيرية / سبها 1996 م .

[28] – تقديم المفعول [إياك] على الفاعل [نعبد] هنا يفيد الاختصاص والحصر كما هو مقرر عند علماء اللغة.

أحمد في المسند بإسناد صحيح – قال ابن رجب رحمه الله في كتابه " جامع العلوم والحكم " : " وهذا حديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال بعض العلماء: " تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش فوا أسفاً من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه "(29) وأنا أقول من بعده: " يا حسرة على أولئك المساكين المخدوعين من أتباع الطرق وشيوخها المستعبِدين للأموات والأحياء منهم المصدقين في سذاجة كل ما تسمعه آذانهم ولم يستفيدوا من عبوديتهم لمشايخهم سوى الخيالات والحكايات والمنامات، ولو أنهم تحرروا من تلك الأغلال والأصر التي وضعوا أنفسهم فيها وانصرفوا لتعلم العلوم النافعة وتدبروا كلام ربهم وعملوا بأذكار سنة نبيهم لكان خيراً لهم في حياتهم ومعادهم ، أسأل الله لي ولهم الهداية " . فالله –ﷻ– هو المغيث وحده ولا ينبغي أن تصرف الإغاثة إلى مخلوق كائناً من كان لما فيه من الضرر البالغ وفساد لعقيدة التوحيد الخالص لرب العالمين، وعن عبادة بن الصامت –﵁– عنه قال: قال أبو بكر [الصديق] –﵁–: " قوموا نستغيث برسول الله –ﷺ– من هذا المنافق فقال النبي –ﷺ–: إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله –ﷻ– (30)، وكان النبي –ﷺ– يقدر على كف أذى هذا المنافق، ولكنه كره أن يستعمل هذا اللفظ في حقه الشريف حماية وصوناً لعقيدة التوحيد وسداً لذرائع الشرك وأدباً رفيعاً مع الحق تبارك وتعالى، وتعليماً لأصحابه وأمته وتحذيراً لهم من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال. أما مسألة التوسل بالمخلوقين، فلم يرد في الكتاب العزيز ولا في سنة النبي –ﷺ–، دليل قطعي الثبوت والدلالة، اللهم بعض الأحاديث الضعيفة التي لا تقوم بها حجة في المسألة، وقد تعلق المجيزون للتوسل بالمخلوقين بشبهات زاعمين أنها أدلة على ذلك، والأحكام الشرعية لا تستنبط من الشبهات والأحاديث الضعيفة، ولولا خشية الإطالة لأتينا على ذكرها كاملة أسانيداً ومتوناً وكشف عوارها، وحسبك كشفنا أدعية النبي –ﷺ– في الصحيحين والسنن وبعض المسانيد، جمع أكثرها الإمام النووي رحمه الله في كتابيه المباركين: " رياض الصالحين " و " الأذكار " والشيخ ابن القيم في كتابه: " الوابل الصيب "، ولن تجد فيها أن النبي –ﷺ– توسل في أدعيته بالأنبياء والرسل من قبله أو بالملائكة المقربين، وقد أجمع أهل العلم على اختلاف مذاهبهم على

النووية

[29] – الوافي بشرح الأربعين النونية– ص 131 ، 132 – د. مصطفى البغا ومحي الدين مستو/ ط 14.

[30] – أخرجه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد – جـ 10 – ص 159 ، وعزاه للطبراني وقال : رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث .

مشروعية التوسل بالعمل الصالح والقربات المشروعة. أو طلب الدعاء ممن يظن بهم الخير والصلاح ، فكان الأحرى بالمرء المسلم أن يأخذ بما أجمع أهل العلم عليه، وترك المشكوك في صحته عملاً بالقاعدة النبوية العظيمة المباركة: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " [31]. ثم نأتي الآن على مسألة ذات صلة وثيقة بموضوعنا، وهي البناء على القبور وتشييد القباب عليها ، فمن المعلوم شرعاً حرمة هذا العمل، والحكمة في هذا التحريم سد الذرائع أمام الشرك وقطع وسائله الخفية والظاهرة، فقد وردت الأحاديث النبوية الصحيحة التي لا يمكن الطعن في صحتها أو تأويلها بما يخالف مقصدها الأصلي فمن هذه النصوص القطعية الثبوت والدلالة: في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي من حديث جابر -﵁-، قال: " نهى رسول الله -ﷺ- أن يجصص القبر وأن يُقعَد عليه، أو يبنى عليه " وعند الترمذي بزيادة :" أو يُزَاد عليه أو يُكتَب عليه " وعن أبي الهيّاج الأسدي ، قال :" قال لي علي بن أبي طالب -﵁-: ألا أبعثك بما بعثني عليه رسول الله -ﷺ-: " أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته " [32] ، وعن عمران بن حُدَيْر عن أبي مجلز أن معاوية -﵁- قال: " تسوية القبور من السنة ، وقد رفعت اليهود والنصارى [أي القبور] فلا تشبهوا بهم " ، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح[33]. وفي الصحيحين من حديث عائشة -رضي الله عنها- ، قوله -ﷺ-: " أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله " . وفي المدونة الكبرى: [في تجصيص القبور] ، وقال مالك أكره(**) تجصيص القبور والبناء عليها ، وهذه الحجارة التي تبنى عليها . قال ابن وهب عن بكر بن سوادة ، قال: " إن كانت القبور لتسوى بالأرض ، قال ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي لهيعة البلوى [صاحب النبي -ﷺ-] : أنه أمر أن يُصنَع ذلك بقبره إذا مات ".

---

[31] – رواه الترمذي والنسائي والإمام أحمد في المسند من حديث الحسن بن علي بن أبي طالب -﵁-، قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

[32] – صحيح مسلم :61/3 ، سنن أبو داود – 70/2 .

[33] – المعجم الكبير للطبراني : جـ 19 – ص 303 ، مجمع الزوائد – جـ 3 – ص 57 .

(**) – إذا قال مالك رحمه الله : أكره كذا فإنه يقصد التحريم كما هو مقرر في اصطلاح المذهب ؛ والجص : الجير

قال سحنون: فهذه آثار في تسويتها فكيف بمن يريد أن يبني عليها ؟ ! (34) " ؛ وأفتى الإمام ابن رشد المالكي [ابن رشد الجد] عليه رحمة الله تعالى ، بوجوب هدم القبب والروضات في المقابر، فقال: " وما يبنى من السقائف والقبب والروضات في مقابر المسلمين، هدمها واجب، ولا يجب أن يُترك من حيطانها إلا قدر ما يجتاز به الرجل قبور قرابته وعشيرته من قبور سواه ، لئلا يأتي من يريد الدفن في ذلك الموضع فينبش قبور أوليائه، والحد في ذلك ما يمكن دخوله من كل ناحية، ولا يفتقر فيه إلى باب" (35).هذا كلام مالك رحمه الله [نجم العلماء] وتلاميذه الأفذاذ أتراهم وهابيون مقلدون لمحمد بن عبد الوهاب أم تيميون يرددون أقوال ابن تيمية ؟ ! ، وأين منهم أولئك الناعقين بالأغواث والأقطاب والمشيدون القباب على قبورهم المعظمين لها بالذبائح والمزارات في إسراف فاحش بما لا فائدة ترجى منه لا في الدنيا ولا في الدين، ولو أنهم أنفقوا تلك الأموال في وجوه البر والإحسان المشروعة لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون. ليت شعري ما الفائدة من بناء القبب على قبور الصالحين أو غيرهم، أيخافون عليهم قيض الصيف أم برد الشتاء، ما الفائدة التي تحصل للموتى من هذه القبب ؟ ! سوى المتاجرة بهم وإرهاب العوام والبسطاء من الناس وكسب الوجاهة والرفعة عندهم. ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[illegible]

لم يكتف متأخروا التصوف باختراع خرافة الأغواث والأقطاب والنجباء والأوتاد وبناء القبب على القبور وعمل المزارات لها والذبح عند القبور ولها ، حتى ادعوا زوراً وبهتاناً رؤية النبي -ﷺ- يقظة وهي دعوى زائفة لا دليل عليها من كتاب ولا سنة ويكذبها الواقع والتاريخ، وهي مقالة لم يعرفها المتقدمون من أهل التصوف من الجنيد إلى القشيرى ، وهي دعوى لا تصح إلا عند ضعفاء العقول، ولا دليل عليها من صريح المنقول ولا من صحيح المعقول، فقد نص كتاب الحق تبارك وتعالى أن

---

[34] – المدونة الكبرى – جـ 1 – ص 252 – طبعة مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – وانظر : مختصر خليل – ص 59 ، والتفريع في فقه مالك لابن الجلاب المالكي – جـ 2 – ص 1094– منشورات دار الآفاق الجديدة / المغرب – 1992 م .

[35] – مسائل ابن رشد / تحقيق : محمد حبيب النجكاني ، جـ2، ص1094 ، منشورات دار الآفاق الجديدة – المغرب 1992 م .

الموتى لا يرجعون إلى الحياة الدنيا، وأن بينهم وبين الرجوع إليها برزخ(36) إلى يوم القيامة يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، ففي سورة المؤمنون: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وقد صح عند أكثر المفسرين أن هذا الأمر عام في جميع الموتى لا الكافرين وحدهم، فقد قال الإمام القرطبي من علماء المالكية: " ليس سؤال الرجعة مختصاً بالكافر فقد يسألها المؤمن كما في آخر سورة المؤمنون "(37) ولحديث أنس -﵁- قوله -ﷺ-: " ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة " - وفي رواية - لما يرى من فضل الشهادة - متفق عليه- ؛ وفي سورة المؤمنون أيضاً: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الموتى ولم يرد تخصيص لها من كتاب ولا سنة صحيحة فلا تخصيص إلا بنص كما هو مقرر في أصول الفقه، بل إن النبي -ﷺ- يؤكد أنه لن يخرج من قبره الشريف قبل يوم القيامة، ففي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري -﵁-، قوله - عليه الصلاة والسلام -: " لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض .... الحديث " (38)

وأما التاريخ فإنه أيضاً يكذب هذه الدعوى الباطلة، فمعلوم أن أصحابه -ﷺ- من المهاجرين والأنصار كانوا أحب الناس إليه جرت عليهم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى محن وفتن كثيرة كانوا فيها أحوج الناس لرويته -ﷺ-، ولم ينقل عن أي منهم أنه رآه يقظة لا بإسناد صحيح ولا ضعيف، كذلك الشأن في أمهات المؤمنين اللائي عشن بعده دهراً طويلاً أو قصيراً، فهذه السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق - رضي الله عنها - عاشت بعده نحواً من أربعين عاماً مقيمة بالمدينة المنورة لم ينقل عنها بإسناد صحيح أو ضعيف أو حتى موضوع أنها كانت تراه -ﷺ- يقظة، فأين الصحابة الكرام السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وأمهات

---

[36] – قال الجوهري في صحاح اللغة: " البرزخ الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات دخل البرزخ " ، تفسير القرطبي جـ 12 – ص 150 – دار الكتاب العربي.

[37] – نفس المصدر ، جـ 18 ، ص 131 .

[38] – صحيح البخاري كتاب الخصومات ، برقم 2412 .

المؤمنين رضي الله عنهن من هؤلاء المتأخرين في القرب عند الله تبارك وتعالى ورسوله -ﷺ-، فأي الفريقين أحق وأولى بهذه الكرامة إن كنتم تعقلون ؟ ! ولو كان الأمر كما تزعمون لظل باب صحبة رسول الله -ﷺ- مفتوحاً إلى يومنا هذا، ولأضاف العلماء كابن الأثير وابن عبد البر وابن حجر العسقلاني عدداً كبيراً من أهل العصور اللاحقة من الذين يرون النبي -ﷺ- يقظة، وعدوهم من صحابته -عليه السلام- . ولكان مجرد قول الرائي له يقظة كافٍ لتصحيح الحديث النبوي الشريف. وإذا كان رسول الله -ﷺ- يخرج من قبره الشريف ويتجول في طول الأرض وعرضها فإن الذي يزور المسجد النبوي ويسلم عليه لا يسلم إلا على مجرد قبر خالٍ من صاحبه. أتريدون منا أن نكذب كلام ربنا تبارك وتعالى وسنة رسوله -ﷺ- ونلغي عقولنا ومعارفنا ونصدق كذبكم وافتراءاتكم، ثم ما السر في إنكم مخصوصون بهذه الرؤية دون سائر الناس، فقد كان -ﷺ- مدة حياته المباركة الشريفة يراه جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ؟ ! ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾- النحل **105** - " من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " - متفق عليه متواتر- .

ولقد سجل لنا التاريخ تراجم بعض هؤلاء الكذابين الذين زعموا رؤيته -ﷺ- يقظة وسجل حكم العلماء عليهم بالكذب والافتراء على النبي -ﷺ-، فانظر مثلاً ترجمة المدعو: " أحمد بن هلال الحساني الصوفي، حيث قال فيه الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: " أحد زنادقة الوقت ولد بعد السبعين [يعني سنة 770 هـ]، ونشأ بدمشق وقدم حلب على رأس القرن [يعني القرن التاسع]، فقرأ على القاضي شرف الدين الأنصاري في مختصر ابن الحاجب "- إلى أن قال: " وصار يدعي دعاوي عريضة منها أنه مجتهد مطلق ويطلق لسانه في كبار الأئمة وأنه مطلع على الكائنات، ولا يعتني بعبادة ولا مواظبة على الجماعة وكان يدعي أنه يأخذ من الحضرة [الإلهية] وأنه نقطة الدائرة، ونقل عنه أتباعه كفريات صريحة .... وزعم أنه يجتمع بالأنبياء كلهم في اليقظة وأن الملائكة تخاطبه في اليقظة وأنه عَرَجَ إلى السماوات، وكان يقول: " أُعْطِيَ موسى مقام التكليم وأعطي محمد مقام التكميل، وأنه هو أُعْطِيَ المقامين معاً إلى غير ذلك ما ذاع واشتهر واشتدت به الفتنة، وقام عليه جماعة وتعصب له بعض الأكابر، وكثر أتباعه وعظم بهم الخطب، إلى أن مات في تاسع شوال سنة

823 هـ[39] . وكذلك ترجمة المدعو: " أحمد بن محمد بن محمد أبو الفتوح الطوسي "، وهو أخو أبي حامد الغزالي، قال الحافظ في ترجمته: " مات سنة 520 هـ، جاءت عنه حكايات تدل على إخلاله [أي إخلاله بأمور الدين]، وكان يضع [أي يضع الحديث كذباً على رسول الله -ﷺ-] - إلى أن قال- : " وتكلم على الناس فحصل له القبول التام واصطاد الخواص والعوام وكان يحضر مجلسه عَالَم لا يحصى... إلى أن قال: " وأن جماعة من الصوفية حضروا سماعاً فقال القوال [المنشد] شيئاً، فقام أبو الفتح وتواجد واضطرب، وقام على رأسه يدور، ورجلاه في الهواء، حتى ذهبت طائفة من الليل، وأعي الجمع، وما وضع له يداً ولا رجلاً على الأرض، ونقل عنه أيضاً أنهم كانوا في وليمة فحضر الطعام، فوقع لأبي الفتح حالة فتغير لونه وشغل عن الطعام، وكان للرباط شيخ زاهد كثير العبادة، فجاء إلى الشيخ يوسف بن أبي أيوب، فقال له: " لقد ابتلينا بزمان سوء ظهرت فيه المنكرات والمحالات، فقال له الشيخ يوسف: وما ذاك ؟ قال: " إن أبا الفتح لما امتنع من الأكل بعد أن وقع له ما جرى سئل عن سبب ذلك، فقال: " رأيت النبي -ﷺ- قد رفع لقمة من القصعة ووضعها في فمي " وكان أبو الفتوح هذا يدافع عن إبليس ويصفه بأنه سيد الموحدين، ويقول: " من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق، لأنه أُمِرَ أن يسجد لغير سيده فأبى " (40) .

وبعد فقد قدمنا من الأدلة النقلية والعقلية ما فيه الكفاية – إن شاء الله تعالى– على بطلان خرافة الغوث والقطب التي ابتدعها متأخروا المتصوفة. نصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين، لا نبتغي من وراء ذلك جاهاً ولا مالاً أو حظوة عند أحد من عباد الله سوى الحق فهو أحب إلينا من المال والجاه، وإننا لنرجو من الناس أن يحرروا عقائدهم وقلوبهم من كل ما يشين عقيدة التوحيد الخالصة لرب العالمين، وأن يتحرروا من ربقة التبعية لشيوخ الخرافات والخيالات، وأن يكون هواهم تبع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه -ﷺ-، ففي عقيدة التوحيد الصافية من الشوائب طمأنينة في القلب وسمو في العقل وتحقيق لمعنى العبودية لله تعالى، والاعتصام بالكتاب والسنة حصن حصين للشباب من الانغماس في دروشة متأخري المتصوفة أو الوقوع في ظلمات

---

[39] – لسان الميزان للحافظ ابن حجر العسقلاني جـ 1- ص 230 – طبعة مؤسسة الأعلمي / بيروت 1986م.

[40] – نفس المصدر -جـ 1 – ص 294 ، وانظر ترجمته مطولة في المنتظم لابن الجوزي – جـ 9 – ص 260 – طبعة دار الثقافة / بيروت .

الغلو والتشدد الذي تدعو إليه بعض الجماعات الإسلامية التي تكفر المجتمع الإسلامي وتستحل الخروج المسلح على أولياء الأمر مما يؤدي إلى مفاسد عظيمة جمة لا يعلم ضررها على الفرد والمجتمع إلا الله تعالى. فلا ينبغي أن تترك ساحة الدعوة إلى هؤلاء وأولئك من دراويش القبور والمزارات الذين خلطوا الدين بالخرافات والأوهام والخيالات. وبعد هذا كله نقدم لك أخي القارئ خمسة نصوص مختارة من التاريخ – على سبيل المثال لا الحصر لترى فيها مدى جناية هذا الفكر الخرافي الأسطوري على الدين وعقول الناس.

كرامة تؤوي قاتلاً**

هذا النص من كتاب: "المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان" تأليف: " أحمد الدردير بن محمد العالم الحضيري " تحقيق: " أبو بكر عثمان الحضيري" الطبعة الأولى 1996 م – الشركة العامة للورق والطباعة – مطابع عصر الجماهير .

يقول مؤلفه عن الشيخ حامد الحضيري، فيما يزعمه له من كرامة: [ومنها أن رجلاً قتل رجلاً، فخاف على نفسه من القتل، فالتجأ إلى الشيخ وقال له: "قدر الله علي فقتلت، والآن جئتك تائباً فاقبلني"، فلما وصل الأمر إلى القاضي والعلماء بعثوا إلى الشيخ وقالوا له: "سلم الرجل للشرع " ، فأبى، ثم اختلفوا فيه، فاتفقوا على بعثه للحاكم الذي هو أعلى من حاكم البلد، فقال الرجل [أي القاتل] "أخاف" ، فخاطبه بنفسه، وقال له: " إذا وصلت إلى الحاكم، وسألك أقتلته ؟ قل له نعم، وإن قال لك: لِمَ ؟ قل له قدر .. ؛ ثم بعد ذلك كلّ كلمة يقولها قلها أنت، ثم إن الرجل سافروا به للحاكم، فلما وصله، وسأله، أقر له بما صنع، فقال الحاكم: أكتفوه، فتنكس الحاكم عن مجلسه ودهش، قبل أن يكتف الرجل، قال الحاكم خلّوه، فقال الرجل: خلّوه، فأفاق، فقال ما قصتك، فأخبره جميعها وإشارة سيدي حامد له] .

فأنت ترى في هذه النص من المغالطات الشرعية الكثير، فضلاً عن صياغته اللغوية الهابطة، وفيه الإساءة للشيخ حامد الحضيري – رحمه الله – وإظهاره بصورة المتآمر مع القاتل وصدّه عن حكم شرع الله تعالى في إيجاب القصاص على القاتل، وهو مما يدخل الشيخ – وحاشاه من ذلك – تحت طائلة لعن الله تعالى على لسان نبيه –ﷺ– ، من حديث علي –﵁– في صحيح مسلم: " لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غيّر منار الأرض" (41) والذي افترى هذه الفرية إنما كان قصده إظهار كرامة الشيخ وقوتها، فأساء إليه من حيث لا يعلم لجهله وغفلته وغلبة هواه الأعمى على قلبه، حتى أنساه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

** – هذا العنوان وما بعده في هذه النصوص ، هي من وضعنا وليست في المصادر المنقول منها .

41 – منار الأرض : هي علامات الحدود .

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ ، وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ ؛ وانظر إلى قول الرجل [المجهول]: " جئتك تائباً فاقبلني " وهل قبول التوبة أو عدمها موكل من عند الله تعالى للشيخ، تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً، ثم لِمَ لَمْ تظهر الكرامة على القاضي والعلماء وحاكم البلد الأدنى ولم تتحقق الكرامة إلا على الحاكم الأعلى ؟ ثم أخيراً نقول مرة أخرى بقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، وقول رسول الله –ﷺ– في صحيح مسلم: " كفى بالمرء إثماً أن يحدّث بكل ما سمع " – ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم – .

المؤرخ الكبير ابن غلبون** يناظر شيخ السلامية في زمنه ويؤكد بطلان نسبة الطريقة للشيخ عبد السلام الأسمر

هذه المناظرة منقولة من كتاب: " التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار " تأليف العلامة المؤرخ الكبير: " أبي عبد الله محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي " – عليه رحمة الله تعالى – تحقيق وتعليق الشيخ: " الطاهر أحمد الزّاوي " – عليه رحمة الله تعالى – الطبعة الثانية، نشر مكتبة النور – طرابلس ليبيا سنة 1967م والطبعة الأولى – دار المدار الإسلامي، بيروت سنة 2004م ؛ وفي هذا النص الخطير الهام، يتضح لك أخي القارئ جلياً قوة حجة الشيخ ابن غلبون – رحمه الله – وأدبه الرفيع في الحوار، وقوة إلزامه لمناظره بالدليلين الشرعي والعقلي وضعف حجة خصمه لافتقارها لأي أساس، وفي ختامها يصرّ مستكبراً في عزة من الإثم وعناد بجهله وحميته الجاهلية رافضاً الحجة متمسكاً بموروثه الخرافي، ونحن نقدم هذا النص عسى أن يفيق أولئك الغافلون من سباتهم، ويعلموا أنهم لم يكونوا على شيء، وإنما هم عبيد الموروث، دون أن يتفكروا في حقيقة ما هم فيه ويحرروا عقولهم ومداركهم من التقليد الأعمى، ونقرع آذانهم وعقولهم وقلوبهم بقول إمامنا المالكي الفذ ابن عبد البر – رحمه الله– [المتوفى سنة 463 هـ] :

((لاَ فَرْقَ بَيْنَ مُقَلِّدٍ وبَهِيمةٍ ⁂ تَنْقَادُ بَيْنَ جَنادِلٍ (*)وَدَعَاثِرٍ(**)))

قال ابن غلبون – رحمه الله – في ترجمة الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، وهو شيخ مناظره الشيخ "محمد النعاس" ؛ [[وممن كان بها(***) من العلماء من أهلها الشيخ عبد السلام بن عثمان، نشأ بتاجورة ، وتفقه بسيدي محمد بن مقيل وغيره من أهل البلد، ولم تكن له رحلة عنها. وألف كتاباً في الفتاوى سماه: "التذييل" زعم أنه ذَيّلَ به المعيار وجمع فيه من الغث والسمين شيئاً لم يسبق به. وكتاباً سماه: "فتح العليم" في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، تعرض فيه لما في البلد من صالحين، واعتمد في

** – من علماء القرن الثاني عشر الهجري .

* – جنادل : جمع جندلة ، وهي الحجارة ** دعاثر : جمع دعثور ، وهي الحفرة .

*** – وممن كان بها أي : طرابلس الغرب .

وفاتهم وخصائصهم على أخبار عوام المتفقرة[42]، وله حيل في المعاملات تدل على عدم إتقانه. وكان يميل إلى نصرة الطائفة المتفقرة المبتدعة ويحتج لبدعهم بما لا يشك في بطلانه من له أدنى مسكة من عقل، وإياه اعتمدت الفرقة المتفرقة حتى أنهم إن أُحتَج عليهم بحديث أو آية عارضوا بالشيخ المذكور، وله كتابة على المختصر زعم أنه اختصر بها شرح الشيخ عبد الباقي عليه، توفي عفا الله عنه ليلة الثلاثاء لخمسٍ خلون من شوال سنة 1139 هـ]] .

وبعد أن يذكر ابن غلبون قصة قدومه إلى الشيخ محمد النعاس وترتيب مجلس المناظرة يقول: فأتيناه وأكرم مثوانا [يعني الشيخ النعاس] وأحسن إلينا، ووافق ذلك ليلة جمعة، وبها كان اجتماعهم، فأنزلنا بمحلهم الذي يجتمعون به؛ فلما صلينا العشاء، دعانا لبيته، وقرب لنا طعاماً، ثم خرجنا منه لنعود إلى محلنا، فأمر بسراج لنا في محل آخر فدخلناه فوجدنا غير فسيح الساحة، وقَدِمَ لنا، فلما مكث واستقر به المجلس، سأل عن الحال، وبالغ في التلطف بنا، ثم استفهمني،

– هل ما بلغنا عنك من التعرض لمتفقرتنا حق ؟

فأجبته :

– هو كما بلغك عني، وقلت: إنك تعلم محبتي لكم، واعتقادي فيكم الخير، وأنت تعلم أن الدين النصيحة، وأنا الليلة ضيفكم وبجواركم، فحق عليكم نصحي بأن تبينوا لي الأمور، ومستندكم في ذلك بحجة واضحة، وعلي قبولها أو تقبلوا بياني وحجتي فتعذروني فيما أتكلم به. فكان جوابه :

– إن هذه طريقة الشيخ عبد السلام الأسمر. فأجبته :

– أن ليس ذلك من طريقته، وحاشاه أن يفعل ذلك، وعلى تقدير فعله ذلك لا يقتدى به في ذلك، إذ هو رجل مجذوب ذو أحوال لا يُتَعرض له في خاصة نفسه، ولا يسلم فعله لمقتدٍ به. فأضرب عن ذلك وأخذ في الجدل، قال :

– وما تُنْكِر منا ؟ فقلت :

– اجتماعكم للذكر ليلة الجمعة والاثنين بخصوصهما. فقال :

– هذه ليال فاضلة، وورد النص بتفضيلهما. فقلت :

– نعم، وهل ورد نص في تخصيصهما بشيء من العبادات ؟ فقال :

---

[42] – المتفقرة : هم المنتسبون إلى الطرق، ويسمون عندنا الفقراء .

– لم أقف على شيء. فقلت :

– أجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يُقْدِمَ على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، فسكت. فقلت :

– أتعتقدون أن صنيعكم هذا دين ؟ فأجاب :

– لو لا الدين ما فعلناه. فقلت :

– بم يثبت الدين ؟ فقال :

– بالتواتر. فقلت :

– سلمنا أن الشيخ المستندين إليه يسلم له ويقتدى به، فمن أثبت لكم هذا عنه ؟ ومن روى هذه الطريقة عنه ؟ فلا بد أن تكون رواية الدين بالعدول. فقال :

– رواها شيخنا الشيخ سيدي علي الفرجاني، فأجبته :

– هو أصل هذا الأمر ومؤسس قواعده، وداعي الخلق إليه، فامتقع لونه. فلما رأيت ذلك منه سألته :

– هل يقبل قوله فيه أو شهادته ؟ فأجاب :

لا يقبل فيه. فانتقل إلى الشيخ أبي راوي؛ فأجبته وألزمته بمثل الأول، فأفتى فيه كالأول؛ ثم اهتدى إلى الشيخ عبد السلام بن عثمان، بعد مدة، واحتج بروايته فقلت :

– هو منسوب للعلم ومشتهر بالعدالة؛ ففرح بذلك، فسألته :

– هل يفعل ذلك. فأجاب :

– لا يفعل ذلك ؛ فقلت :

– وهل هو راضٍ به ؟ فأجاب :

– نعم ؛ فقلت :

– ما حكم الله في شهادته فيه ؛ فقال :

– لا تُقْبَل ؛ فقلت :

– حينئذ يجب عليكم الإقلاع ؛ فأضرب عن كلامنا، وأخذ يسأل عن المنكر من طريقتهم ؛ فقلت :

– أخذكم مالاً ممن غاب عن جمعكم ليلة الاثنين والجمعة كرهاً ممن انتسب إليكم وتسمونه حقاً ؛ وأخذكم ممن فعل معصية مالاً سوى ما شرع الله له فيه ؛ فقال :

- مستندنا في ذلك جواز التأديب بالمال ؛ فقلت :
- أنتم مالكيو المذهب، والمذهب خلاف ذلك ؛ فقال :
- نعم، ولكن له وجه في الجملة ؛ فقلت :
- إن جوز ذلك القائل به، إنما جوز ذلك للإمام بشرط أن يضعه في بيت مال المسلمين ؛ فقال :
- وأين الإمام ؛ فقلت :
- مذهب مالك يقول بإطاعته بعد انعقاد البيعة ولو فاسقاً ؛ فسكت، فكان آخر كلامه لي :
- هذه طريقة مشايخي، لا يسعني تركها، كائنة ما كانت(43) ؛ فمن يومئذ زال ما كان عندي من إنصافه وإتباعه للحق، هدانا الله وإياه إلى الصراط المستقيم، آمين. [التذكار ص 185 – 187]

فمن هذه المناظرة تبين كيف انهار الباطل أمام النقد العلمي الرصين، فقد أجاد ابن غلبون – رحمه الله تعالى – استخدام منهج المحدثين في نقد الخبر رواية ودراية، وهذا النقد يمكن تعميمه على جميع طرق المتصوفة التي تزعم أن لها أسانيد – يزعمون صحتها – إلى رسول الله –ﷺ– ، وإنما هي أسانيد ركبت واخترعت في عصور متأخرة واغتر بها من لا علم عنده من عوام الناس وبسطائهم، فأسانيدهم لم يعرفها جهابذة الحديث كالبخاري ومسلم ومالك وأصحاب السنن والمسانيد وغيرهم من علماء الرواية الدينية.

---

[43] – علق الشيخ الطاهر أحمد الزاوي على هذه المناظرة بقوله [في ترجمة المؤلف] : " ولما سُقِطَ في يد الشيخ – يعني الشيخ محمد النعاس – التجأ إلى طريق الجهل والتعصب وقال: " هذه طريقة مشايخي لا يسعني تركها كائنة ما كانت " ؛ كبرت كلمة تخرج من فيه.

افتراءات الدسوقي على الله تعالى ورسوله –ﷺ–

هذا النص منقول من كتاب " الطبقات الكبرى " لعبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة 973 هـ ، وهو كتاب حافل بالخرافات؛ ولم يستح مؤلفه أن يخلط خيار الصحابة –ؓ– وأعلام الأمة الإسلامية بمن يسميهم أولياء الله تعالى ويترضى عليهم من المجانين والمعتوهين من أمثال أبي خودة والحانوتي وعبد القادر السبكي وغيرهم[44]، وقد ذكر في ترجمات هؤلاء أشياء منكرة وقبيحة جداً يستحي من ذكرها أسقط الناس وأفحشهم ، والكتاب يعد بحق أصدق صورة عن سيادة التفكير الأسطوري والعقلية الخرافية، عند متأخري المتصوفة، ونقدم الآن نموذجاً لهذا الفكر من ترجمة الشيخ إبراهيم الدسوقي الذي تنسب له الطريقة المعروفة. يقول الشعراني :

[وكان –ؓ– يقول: المريد من شيخه على صورة الميت لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة في الزاوية أو غير ذلك، هكذا كانت طريقة السلف والخلف مع أشياخهم[45] إلى أن يقول :

---

[44] – أنظر ترجماتهم في الجزء الثاني من الكتاب المذكور – نشر المكتبة التوفيقية .

[45] – بمثل هذه النظريات الزائفة سلب شيوخ متأخروا الصوفية عقول البسطاء والأغرار من أتباعهم، حتى صار بعضهم ينفق على شيخه من قوته وقوت أطفاله، طلباً لرضا الشيخ وخوفاً من العقوق؛ وأما قول الدسوقي: " هكذا كانت طريقة السلف والخلف " ؛ أما الخلف من أمثاله فصحيح وأما السلف؛ فإنه كذب محض، فلم نعلم من سيرة رسول الله –ﷺ– مع أصحابه أن هذا كان من طريقتهم، فلربما رأى رسول الله –ﷺ– رأياً، فخالفه أحد أصحابه، وقصة يوم بدر خير دليل على ما نقول، وقول الحق تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ ؛ وكذلك كانت سيرة أصحابه –ؓ– مع التابعين، وكذلك أئمة الحديث والفقه مع تلاميذهم والشواهد في هذا كثيرة جداً مبثوثة في كتب التراجم، وقد تواتر عن إمامنا مالك –ؒ– قوله: " كلكم يؤخذ من قوله ويُرد إلا صاحب هذا القبر " [يعني رسول الله –ﷺ–] وقد تتلمذ الإمام الشافعي للإمام مالك – رضي الله عنهما – ثلاثة عشر عاماً، ثم استقل باجتهاده ومذهبه، حتى قال: " لقد خالفت مالكاً ليعلم الناس أنه بشر يصيب ويخطئ، وكذلك الشأن مع الإمام عبد = الرحمن بن القاسم فله اجتهادات خالف فيها إمامه مالك، كذلك الشأن مع أبي حنيفة وصاحبيه والإمام أحمد؛ فما جاء الإسلام ليحجر على العقول بل ليحررها من أغلال التقليد والجمود وعبادة الشيوخ =

وكان –﵁– يقول: أنا موسى عليه السلام في مناجاته، أنا علي رضي الله عنه في حملاته، أنا كل ولي في الأرض خلعته بيدي أُلبِسُ منهم من شئت، أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار غلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها من زارني أسكنته جنة الفردوس، واعلم يا ولدي: أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله، وما كان ولي متصلاً بالله تعالى إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه، وما من ولي إلا ويحمل على الكفار كما كان علي بن أبي طالب –﵁– يحمل، وقد كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخاً في الأزل بين يدي قديم الأزل وبين يدي رسول الله –ﷺ– ، وإن الله –﷿– خلقني من نور رسول الله –ﷺ– وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء، فخلعت عليهم بيدي، وقال لي رسول الله –ﷺ– يا إبراهيم أنت نقيب عليهم، فكنت أنا ورسول الله –ﷺ– وأخي عبد القادر خلفي وأن الرفاعي خلف عبد القادر ثم التفت إلى رسول الله –ﷺ– وقال لي يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له يغلق النيران وسر إلى رضوان وقل له يفتح الجنان، ففعل مالك ما أُمِرَ به ورضوان ما أُمِرَ – وأطَالَ في معنى الكلام ثم قال –﵁– : " وما يعلم ما قلته إلا من انخلع من كثافة حُجُبِه وصار مُرَوْحَناً كالملائكة " قلت [أي الشعراني] : وهذا كلام من مقام الاستطالة تعطي الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي –﵁– ، فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح والسلام] .

– وأما باقي هذيان الدسوقي، فقد دحضناه بحمد الله تعالى فيما سبق بالآيات المحكمات وصحيح السنة، وذكرنا حكم علمائنا المالكية فيه وفي أمثاله؛ ولنا كلمة أخيرة في هذا المقام للشعراني: ما مقام الاستطالة الذي تدعيه وتبرر به جسارة الدسوقي على الله تبارك وتعالى. وتفتري على الشيخ عبد القادر الجيلي؛ أفي كتاب الله وسنة رسوله ذكر أو إشارة إلى هذا المقام المزعوم وكيف يستطيل مخلوق على خالقه جل وعلا، ألم تقرأ قول الحق تعالى عن ملائكته المقربين في سورة الأنبياء: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ويقول عن أنبيائه – عليهم السلام – في نفس السورة: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .

الشيخ والكنيس اليهودي

هذا النص من كتاب: " الحوليات الليبية " [46] لمؤلفة الفرنسي: شارل فيرو، الذي عمل قنصلاً لبلاده في طرابلس من سنة 1878م إلى سنة 1884م، وترجمها عن الفرنسية الأستاذ الدكتور " محمد عبد الكريم الوافي " الأستاذ بكلية التربية / جامعة الفاتح. ونقدم هذا النص شاهداً من التاريخ على زيف التفسيرات الخرافية وعلى مدى شيوعها بين العوام والبسطاء واستغلال أصحاب المصالح لها بما يحقق مآربهم الخاصة. يقول شارل فيرو:

[في شهر يوليو من سنة 1867م وقع حريق في كنيس اليهود ببلدة زليطن، وانتهز القنصل الفرنسي بوتّا BOTTA علاقاته الممتازة مع حسن باشا – الذي كان يقوم بأعمال الوالي مؤقتاً – فحثه على الإسراع باتخاذ إجراءات حاسمة بصدد ذلك الحريق، فتم إيفاد ضابط وبعض الفرسان إلى زليطن لحماية يهودها، حيث تم إلقاء القبض على قاضي البلدة ومفتيها وعلى أعضاء مجلسها البلدي، وأدى التحقيق الذي قام به الباشا والقنصل الفرنسي العام بخصوص هذه القضية إلى إماطة اللثام عن أخلاقيات غريبة. والذي حدث هو أن عدد يهود زليطن كان قد تضخم، فقرر هؤلاء أن ينشئوا لأنفسهم بالبلدة كنيساً، وأذنت لهم الحكومة بذلك. وأدت هذه المساندة الرسمية إلى تشجيع الجالية اليهودية هناك، فما كان منها إلا أن دشنت عمليات البناء بإقامة حفل كبير أدى إلى سخط مسلمي البلدة، والحقيقة أن مواد البناء كانت قد نقلت وسط صداح الموسيقى وبين صيحات اليهود الذين كانوا يعبّرون عن فرحتهم لانتصارهم في مشروعهم. غير أن ما كاد يمر أسبوع واحد على تشييد ذلك الكنيس العبراني، حتى شبت فيه النيران في إحدى الليالي الصحوة، فأتت عليه برمته. وبث من دبّروا الحريق بين الأهالي العرب إشاعات تقول أن المرابط الشهير سيدي عبد السلام الأسمر قد نهض من ضريحه الواقع قرب الكنيس، حيث قام بنفسه بإشعال النار في المصلى اليهودي، الذي امتعض ذلك الوالي الصالح من إقامته على مقربة من ضريحه. وحضر كثير من الأهالي للإدلاء بشهادتهم قائلين أنهم قد رأوا الولي الصالح بأم أعينهم وهو يشعل النار في الكنيس، بيد أن تحقيقاً ترأسه مستشار القنصلية الفرنسية قد أثبت بأن

---

[46] – الطبعة الأولى سنة 1973 والثانية سنة 1983 / المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان / طرابلس.

حزمة كبيرة من جريد وسعف النخيل الجاف التي أوقد فيها النيران عمداً، هي التي أدت إلى تحويل الكنيس إلى كوم من الرماد ؛ فتم إلقاء القبض على الأخوين منصور وعلي قدارة، الذين قاما بإشعال النار التي عزا الناس أمر إشعالها إلى المرابط المعروف].

قلت: " تُرَى لو لم يتصرف نائب الوالي " حسن باشا " ويتخذ مثل هذا الإجراء الحاسم الصارم لكانت خرافة نهوض الشيخ من قبره تلوكها ألسنة الدراويش إلى يومنا هذا وإلى ما يشاء الله تعالى.

الباشا والمرابط

هذا النص منقول من نفس المصدر السابق [الحوليات الليبية] ، نقدمه هنا شاهداً لبيان زيف التعلق بأصحاب القبور، وعبرة للمخدوعين الذين يرددون بغباء وجهل: " إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور ". يقول شارل فيرو: [كان ولَه أحمد القرمانلي وحبه للنساء على الدوام مضرب الأمثال، ففي شبابه – أي غداة مقتل سلفه خليل بك الأرناؤوطي – نجده قد توّله عشقاً بامرأته الشابة، غير أن تلك المرأة صدت جميع العروض والوعود التي بذلها أحمد، فقد كانت تعتبره – وهي محقة في ذلك – المحرض على قتل زوجها، وتهرباً من ملاحقاته المستمرة لها، اضطرت إلى الاستجارة بمزار مرابط يدعى سيدي الصيد[47] وهو مزار لا تنتهك حرمته، بيد أن القرمانلي نجح في استمالة ذلك المرابط إليه، إلى درجة أن هذا الأخير استطاع في النهاية أن يقنع أرملة خليل بالاستسلام له: فقد ادعى سيدي الصيد أنة استقرأ النجوم فأنبأته بأنها ستصبح زوجة دايْ طرابلس الجديد، وبأن زواجها منه سيؤدي إلى إنجاب ذرية من الأمراء الذين تخبئ لهم الأقدار مستقبلاً باهراً، وكانت الأرملة الشابة تؤمن بتنبؤات المرابطين والأولياء، فما كان منها إلا أن رضخت للمشيئة الإلهية ؛ ولم يلبث ميلاد ابنهما الأمير محمد أن دلل على صدق نبوءة المرابط. واحتفظ القرمانلي السعيد في نفسه لذلك الولي المبجل بجميل لا يُنسى، بحيث أنه لم ينقطع منذ ذلك الوقت عن شمله برعايته وإغداق العطاء عليه وصار لا يمر بمزاره إلا وتوقف للتبرك به.غير أن حجب الغيب التي ادعى سيدي الصيد أنه يعرف كنهها لم تنبئه بأن ابنته هو نفسه ستصبح بدورها هدفاً لشهوات هذا العاهل الشّره، وما تزال الروايات تتناقل حتى اليوم ذكرى هذه المأساة، فإليكموها كما دونت منذ أكثر من قرن[48] .

---

[47] – هو فيما يبدو حفيد المرابط سيدي محمد الصيد اليحياوي الذي ورد ذكره عند التعرض لفترة حكم سليمان داي وشريف باشا وتنتمي أسرة الصيد هذه إلى قبيلة بني ارقيعه، أنظر ابن غلبون –ص 148 – وأحمد النائب – ص 238 ، وانظر الحاشية الخاصة بجده والتي اعتمدت فيها على أحمد النائب. [المترجم]

[48] – النص التالي مأخوذ من كتاب رتشارد توللي المسمى: " عشر سنوات في بلاط طرابلس " ترجمة عمر أبو حجلة من ص 126 إلى 128 . [المترجم]

"توجه أحمد القرمانلي لزيارة سيدي الصيد ووسط الارتباك الذي سببته هذه الزيارة المباغتة للأسرة، وإسراعها بإعداد المرطبات، لمح الباشا في لحظة خاطفة ابنة المرابط الكبرى، والتي يقال أنها كانت من أجمل نساء ذلك العصر، وصعق الباشا لشدة حسنها إلى درجة أنه قال للمرابط في التو أنه سيغدق عليه الأموال إن هو أرسل معه ابنته على الفور إلى طرابلس، لأن إرادته قضت بأن تصبح محظيته الأولى في قصر حريمه، غير أن الولي الصالح بدلاً من أن يغتبط لهذا التشريف الذي أراد عاهله أن يشمله به – صاح في وجهه محتجاً على أوامره، فرد عليه الباشا بحدة قائلاً له إنه إن لم يقبل إرسال ابنته في نفس تلك الليلة إلى قصر حريمه في أبهى زينة وأعبق عطر، فإنه سيجهز عليه هو وأسرته ويخفي آثارهم قبل حلول صباح اليوم التالي، وبعد أن وجه إليه هذا التهديد غادره تاركاً وراءه حرساً لتنفيذ أوامره. وإذ وجد المرابط المسكين عاجزاً عن تجنيب نفسه وأسرته هول الخطر الذي يتهددهم، فإنه لم يجد مفراً من إلباس ابنته أبهى ثيابها ثم غطاها بالذهب والجواهر، وذلك بعد إقناعه لها مسبقاً باجتراع السم حتى لا تقع فريسة لنزوة الباشا الجارفة، وعندئذ كفكف دموعها ورافقها إلى عتبة داره حيث طلب من أسرته أن تنشد في حضرتها أغاني الفرح قبل مغادرتها لهم، ثم وضعها في هودج من الكتان نصب على سنام جمل تغطيه الزينات – كما هي العادة في هذه البلاد عند تهيئة النساء للسفر – وتركها بين أيدي ضباط الباشا، وبعد ذلك أطلق العنان لدموعه المنهمرة وأخذ يدعو الله أن يصب جام غضبه وانتقامه على رأس هذا الذي سلبه ابنته المحبوبة. ثم انضم إلى أولئك الحراس الذين تركهم الباشا خدم آخرون لاقتيادها إلى القلعة، وعند وصولها إلى هناك أدخلت على الفور إلى جناح الباشا، حيث لم يلبث هو أن لحق بها لاستقبالها فيه، غير أنه ما إن ولج إلى الغرفة التي كانت بها حتى صعق من شدة الهول، فقد وجدها ممددة على أريكة، وقد أصبح جسدها الحسن التكوين صلباً جامداً بعد أن سرت فيه برودة الموت، فقلبها يمنة ويسرة لمعرفة ما إذا كانت إحدى الأيدي قد وجهت إليها فجأة طعنة نجلاء، وذلك بالرغم من أنه كان يعرف أنه من المحرّم على أي كان أن يلج إلى مقصورتها بعد وصولها سواه، ولا شك أنه سمع خدمه يتذاكرون تلك اللعنات التي صبها عليه المرابط ساعة انتزاعها منه، وسرعان ما اجتاحه اعتقاد بأن الذي حل به لم يكن سوى استجابة لدعوات المرابط، فتملكه حالة من وخز الضمير ومن التطير الذي جُبِل عليه المغاربة، فلم يلبث أن وقع في اضطراب عميق كاد أن ينتهي به إلى الخاتمة التي انتهت إليها تلك الضحية

التي كانت مسجاة عند قدميه وما إن بزغ الفجر حتى توجه إلى سيدي الصيد وطلب منه أن يعلل وفاة ابنته المفاجئة ؛ ورد عليه المرابط قائلاً: إن ابنته كان لديها ما يكفي من الأنفة ما جعلها تقبل بأن تتجرع من بين يديه قبل رحيلها مشروباً مسمماً] .